يقظة الضمير الاجتماعي

في الأمة المصرية

افتتاح معهد دراسات الطفولة

١ — كلمة معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي

سيداتي، سادتي — يسرني أن أتحدث الى حضراتكم اليوم بوصف كوني رئيساً لرابطة الاصلاح الاجتماعي أكثر مني وزيراً لوزارة المعارف. على اني أعترف بأن الجهود التي بذلتها وتبذلها الرابطة، قد كان لصديقي المشماوي بك وزملائي أعضاء الرابطة فيها من الأثر أكثر مما لي. ذلك بأني منذ أسندت اليَّ شئون وزارة المعارف لم تتح لي الفرصة ولم يسمح الوقت أن أكون وثيق الاتصال بالرابطة ومع ذلك فقد خطت خطوات فسيحة محمودة. والمعهد الذي نفتتحه اليوم لشهيد بأن أخواني العاملين في الرابطة قد نهضوا بالعبء نهوضاً موفقاً مشكوراً

سيداتي: انكنَّ خير من يعرف أن الطفل يكون من الحياة الانسانية كما يكون التمثال في الحياة الفنية. وكما أن ذوق الفنان وقوة نفسه وجميع مواهبه تظهر في تأليف التمثال، فكذلك يظهر ذوق الأم أو المربية في تكوين الانسان خَلقاً وخُلقاً، مظهراً ومخبراً، والطفل الذي يتعهد تعهداً سليماً ينشأ سليم الجسم والعقل والذوق. أما الطفل الذي يُتعهد تعهداً مريضاً فانه ينشأ مريضاً في كل شيء. واذا كان هذا المعهد يقوم بالاعداد لدراسة الطفولة فمعنى هذا أنه سيقوم بالاعداد لخلق جيل جديد كنا نرجو أن نكون نحن من أبنائه

سيداتي، سادتي: أذكر في جولاتي خارج الوطن ساعات، قضيتها في غبطة وسعادة، بين الحدائق في عواصم البلاد الاوربية: لندن، برلين، باريس. تلك الحدائق بما فيها من أزهار بديعة وأشجار مورقة وتماثيل بارعة، كان يفيض عليها من الحياة والجمال أطفال يأوون اليها فاذا الازهار أضوع شذًا، واذا الاشجار أجمل منظراً، واذا التماثيل أبرع خلقاً كأنما تطل عليهم بعيونها فرحة مستبشرة. وكنت أتمنى أن أرى من بنات وطني من يبتن مثل

ذلك النشء في بلادنا . ذلك النشء الذي استضاع حمل الأعباء العظمة في العالم . تلك الأعباء المعنوية التي تظهر الرجال أكثر من الأعباء المادية ، فالرجل هو من يواجه الكارثات والنوازل بجنان ثابت . لا من يحمل الحديد والأثقال

فاذا كنتم يا حواتي أعضاء الرابطة قد ساهمتم بهذا العمل العظيم ، تعاونكم وزارات الشؤون الاجتماعية والصحة والأوقاف والمعارف وغيرها ، فأنتم جديرون بالحمد وخاصة من زميل لكم لم يكن له شرف مشاركتكم في العمل !

والآن أود أن أتجه بكلمة الى الفتيات المثقفات اللاتي سيشتركن في هذه الدراسات . أرجو أن تعلم كل منكن انها تؤدي أقدس الواجبات الوطنية حين تعمل في معاهد الطفولة ورعايتها ، وان واجبها ليس العمل في حدود المعهد أو المدرسة ، وإنما نشر هذه المبادئ بين الأسر وتقريرها في نفوس الأمهات . وإن هذا الوطن سيشكر لكن أصدق شكر ما ستبذلن من مجهود في سبيل توطيد بنائه وتدعيم أركانه

وفقكن الله للخير ، وألهمكن الرشاد ، إنه سميع مجيب ؟

٢ — كلمة معالي الاستاذ ابراهيم دسوقي أباظه بك

وزير الشؤون الاجتماعية

أيها السادة : انكم لتعلمون حق العلم ما تبذله رابطة الاصلاح الاجتماعي من جهود مثمرة في خدمة الوطن وما تنهض به من أعمال جليلة في سبيل الله والمصلحة العامة . فلقد دأبت منذ أنشئت على التذكير بواجب إصلاح المجتمع المصري ، فيما نظمت من مؤتمرات وما عقدت من دراسات ، ثم اتجهت وجهة عملية في خطتها الرشيدة ، فأرتنا مثلاً لتنفيذ الإصلاح ، وذلك بما أعدت من مؤسسات للكفالة والارشاد والتعليم . وما أحوج مجتمعنا الى أن تقوى يد رجاله العاملين هذه الروح الاجتماعية الخيرة ، فان كل مؤسسة تقام إنما تضمد جرحاً من جروحه ، وتبرىء علة من علله ، وتعمل على أن يستبع جسمه سليماً أو أدنى الى السلامة

ومما لا شك فيه أن كل بناء تراد إقامته يجب على من يقيمه أن يُعنى أول ما يعنى بأساسه ، حتى إذا اطمأن إلى أنه متين وطيد ، كان البناء قميناً أن يشمخ ويعلو ويثبت للزعازع والأعاصير . وفي معتقدي ان الطفولة تمثل من اصلاح المجتمع منزلة الاساس من البناء ، ولهذا نرحب أكل ترحيب بالمشروع الوليد الذي أخذته الرابطة على عاتقها منذ اليوم ، وهو إنشاء معهد لدراسات الطفولة ، تتلقى فيه الفتيات المثقفات ما ينشئهن تنشئة صالحة ، ويجعل منهن أمهات يدركن مهمتهن السامية ، ويغرسن الرجولة الصحيحة فيمن يضمه المستقبل بين أيديهن من الاطفال . وكان أولى أن يقدم هذا المشروع على كل مشروع ، وان يبدأ به

قبل كل شيء ، وبذلك نواجه المشكلات من أصولها ، ونعالج الداء في منبته

ولقد شعرت الأمة بما تعانيه الطفولة من إهمال في التنشئة والتربية ، وما لذلك من أثر سيئ في الغد المرجو للنشء . فراح الأمراء يرسلون أفلاذ أكبادهم الى الأجنبيات ، فكان الأطفال يستفيدون منهن جانباً من النظافة والنظام ، إلا أن التعويل على الأجنبيات أدّى الى خطر عظيم ، ذلك هو ضعف الشعور القومي ، وسوء التوجيه الثقافي . ونحن نسمو بآمالنا الى جيل جديد نستأنف به مفاخر ماضينا التليد ، ونستعيد به سير الأولين من أبطال العروبة شباناً ورجالاً أكفاء ، ولن نبلغ من هذا مأربنا الا اذا امتدت قوميتنا واستقامت ثقافتنا على نهج رشيد

نريد أيها السادة أن يكون شبابنا على غرار عبد الله بن الزبير في رجولته الحقة ، إذ كان صبيًا يلعب مع أترابه ، وما ان لمحوا الخليفة قادماً حتى فرّوا وبقي في مكانه وحده . فسأله الخليفة : لِمَ لم تفر مثلهم ؟ فأجابه على البديهة : ليس الطريق بذي ضيق فأفسح لك ولستُ جانياً فأخشاك ! فقال الخليفة : سيكون لهذا الطفل شأن . وكان لابن الزبير من علو الهمة وشجاعة القلب ما سجله له التاريخ ، ومثلٌ مضرب الأمثال للابطال .

نريد أيها السادة شباناً من طراز ذلك الشاب الذي وفد على أحد الخلفاء في جمع من قومه ، فتقدم دونهم يتكلم فيما حضروا من أجله ، فقال لهم الخليفة : أما فيكم من هو أكبر من هذا الغلام يحسن الكلام ؟ فقال له الشاب : لو كان الأمر الى السن لكان بين المؤمنين من هو أحق بإمارتهم منك ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه . فسرّ الخليفة من جوابه ، وأذن له في القول

فمثل هؤلاء الشبان تتكوّن الأمة الناهضة ، ويكثر الرجال العاملون ، وتمتلىء صحائف التاريخ بمآثر والامجاد . ولن تقوم للشبان قائمة الا إذا احتضنتهم صدور وعت أشتات المعارف صحية واجتماعية وثقافية ، وتلقفتهم أيدٍ تعرف النفع والضر ، فتنشىء أبناء المستقبل على بصيرة وهدًى

ولقد سعينا الآن من معالي الدكتور هيكل باشا أن كل فتاة يخرّجها هذا المعهد الناشىء تسدي الى الوطن خدمة جليلة ، وإني لأرى أنها تشترك في بناء الصرح القومي للمستقبل القريب . فلنناضد جميعاً هذا المعهد النافع ، ولنعاونه بما يسعنا من جهد ومال ولننتظر من ورائه الخير كله ما دام يرعاه رجال أخلصوا لله والوطن جهودهم أمثال صديقي الأستاذ محمد العشماوي بك الذي وهب للخدمة العامة ليله ونهاره . والله المسئول أن يكلل أعمال الرابطة بحسن التوفيق

٢ — كلمة معالي الدكتور محمد العشماوي باشا

المستشار المالي لوزارة الشئون الاجتماعية ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي

أرى واجباً علي أن أفتتح حديثي بشكر الوزيرين الجليلين، وزير المعارف ووزير الشئون الاجتماعية، إذ أعدق كلٌّ منهما على الرابطة كلمات التشجيع، وآثرها بجميل العطف، وصدر عملها عظياً جديراً بالتكريم، وبذلك عظمت التبعة على الرابطة، وأصبح فرضاً عليها ان تحقق ما يقتضيها ذلك التشجيع، وأن تثبت كفاءتها لهذا العطف. فالوزيران الفاضلان أرادا في لباقة أن تقع الرابطة في حرج شديد، فاتخذا من آفاقهما الرفيعة ومثلهما العليا صوراً مما تقوم به الجماعات العاملة، وفرضا أن الرابطة مرآة لهاتيكم الصور، فانتهت بذلك مهمتهما وبقي العبء كاملاً على كاهل الرابطة. ونحن نقبل هذا الاحراج والتحدي وإن كنا ضعافاً في الجهود والقوى، ولنبدأ بما بدأت به الدعوة المحمدية الكبرى «أعني الإيمان الصادق، وإذا صدق الإيمان فلا ارتداد ثَمَّ ولا نكوص. ولقد آمنا الإيمان كله بفكرة الإصلاح الاجتماعي، ومضينا في طريقنا على قلة الموارد تحدونا الهمة ولمعتنا المثابرة. وها نحن أولاء نفتتح اليوم معهد دراسات الطفولة، كما افتتحنا بالأمس دار كفالة الطفل، وسنفتتح في القريب ان شاء الله داراً لكفالة الفتاة، مفكرين دائماً فيما يمكن إنشاؤه من دور الخدمة العامة، مستأنسين بذلك العون الماديّ والأدبيّ الذي نلقاه من الجهات المختلفة حكومية أو شعبية، منتظرين أن يزيد العون حتى تزداد به جهودنا إنتاجاً

ولقد وقفت منذ أيام لمناسبة كهذه المناسبة في حفل قريب من هذا الحفل، أتحدث في معركة الإصلاح الاجتماعي، فصورتها معركة لها قادتها وجنودها، ولها أسلحتها وميادينها ولها براجها وخططها. وقلت إنها هي المعركة الكبرى، وما عداها صغير بالإضافة اليها، ولكي ننجح في المعارك الأخرى يجب أن نصطلي معركة الإصلاح حامية. وتساءلت: أين القادة؟ وهل وضعنا الخطة؟ وهل أعددنا الجند؟ وهل عيّنا الميدان؟ ثم عقدتُ وجوه شبه بين معركة الاصلاح ومعركة الحرب، وأبنت أنه لا بد من قادة درسوا أدواء المجتمع المصري دراسة تستند الى إحصائيات دقيقة وموازنات نافذة، ولا بد من روية في وضع الخطة تخرج بنا عن سياسة الارتجال، وكذلك لا بد من اقتباس النظم المفيدة في الأمم المتحضرة بما يلائم البيئة والخصائص القومية. وقلت في حديثي إن أعداءنا في المركة: الفقر والمرض والجهل والانحلال الخلقي، ومحاربة هذه الأعداء تحتاج الى صبر وإقدام ومثابرة، فليس في معركة الاصلاح الاجتماعي هدنة ولا سلام!

وبينما أنا أعدد الميادين التي تنشب فيها معركة الإصلاح، ألمعت الى ميدان الطفولة إلماعاً وأنا اليوم أفرده بالحديث. وإذا ذكرتُ الطفولة، فإنما أعني المستقبل، أعني الجيل الجديد،

بل أعني الاجيال المتتابعة حتى تقوم الساعة . فانهُ اذا حنت الطفولة حنت الشباب وحنت الرجولة في عقاب وأعقاب الاعقاب . فطالب الروح الصالح يعمي بالبدء صالح ، فان قصّر في اختياره كان حصاده الخراب والهلاك والطفولة في مصر مشكلة يجب ان يكون علاجها بدء الاصلاح ، ويجب ان يكون العلاج عامًّا في الاحزاب والحكومات والجماعات ، عامًّا في البيوت وفي معاهد التعليم ، بل يجب أن يكون فرضَ عين تتواثر له الجهود من المال والجاه والعلم والتجربة . فهل قامت المعركة في ميدان الطفولة ؟ وهل جمع القادة أمرهم لانقاذها ؟ وهل تدارسوا ما يتطلبهُ الانقاذ من خطط ؟ ان من صفة المؤمنين الجهر بالحق دون مواربة ولاسيما فيما يتعلق بالشئون الحيوية للامة ، فأذنوا لي ان أكاشفكم بأن الطفولة في مصر مهملة لم تبذل لها حتى اليوم عناية جديرة بالاعتبار . فالطفولة مهملة في قصر الغني وكوخ الفقير ، فأما في قصر الغني فالطفل مكفول له الغذاء الطيب والفراش الوثير ، ولكنهُ يقيم في حضن أبويه ، شقي وهو يتقلب في النعماء ، فقير وهو يلعب بالمال ، وذلك لانهُ فقير الروح والنفس عديم الخلق والتربية . فأما الطفل في كوخ الفقير فكما نعلم : غذاء منقوص ، وكساء ملفق ، ومأوى غير صالح ، ونشأة كما يتفق أن تكون

فهل هيأنا للطفولة مؤسساتها ، وهل راعيناها وهي جنين ، وحين ولدت ، وحين شبت ؟ وهل عرفنا أنها تطلب أولاً والدين صحيحين في الجسم والعقل ليستطيعا إنشاءها نشأة صالحة ؟ وهل التفتنا الى أن الطفل كالمرآة تنطبع عليها أول ما تنطبع أعمال الوالدين ؟ وهل أعددنا الأم وهي التي تتلقى الطفل عجينة تسويها على النحو الذي تفهم ؟ إني لاذكر أني قلت في بعض المواقف : لو تركت لي الأمر دون معقب لأخرجت البنين من المدارس وملأتها بالبنات ، حتى يتسنى لنا إخراج جيل من الأمهات الصالحات . ورحم الله شوقيًّا إذ يقول :

واذا النساء نشأنَ في أمية رضع الرجال جهالةً وخمولا

فالأمهات الجاهلات يرضعنَ أطفالهنَّ جهالة صحية وجهالة اجتماعية تخرجهم مهازيل في العلم والجسم يصبحون عالة على البلاد

ولقد ذكر معالي وزير الشؤون الاجتماعية عبد الله بن الزبير ، ورجا ان يكون في الأمة العربية أمثاله همةَ نفس وعظمة شخصية ، فلننظر كيف نشأ ذلك البطل الهمام . إنهُ نشأ في حضن أسماء بنت أبي بكر . وكيف كانت أسماء ؟ حسبكم منها أنها هي التي أخرجت ولدها هذا ليلقى الموت حين ضيق الحصار عليه الحجاجُ بن يوسف ، وقالت له : إن كنت تدفع عن حق فأقدم ولا تمكنت عنهُ . فقال لها : اني لأخشى ان يمثلوا بي بعد القتل ، فأجابته : ان الشاة يا بني لا تألم السلخ بعد أن تذبح . فانظروا أبي أم كانت أسماء ، ولا تعجبوا بعد ذلك

أن يكون ولدها عبد الله على العظمة التي سجلها له التاريخ

ولست في هذا المقام أتحدث عن طفولة العاصمة وحدها من المدائن، وانما أتحدث عن طفولة القطر كله، أعني طفولة ستة عشر مليوناً من أبناء مصر، يمكن الريف من بينهم ثلاثة عشر مليوناً أو أكثر. وانها لمهمة شاقة أن تعد الأمومة في هذا العدد العظيم، ولكن يجب أن نبدأ الجهاد، وأن نبذل المال في سخاء، فلا خير في مال ليس وراءه رجال، ولا خير في عهود تحسب في تاريخ الأمة وهي خلاء من الاصلاح

والرعاية الصحية في مقدمة ما تفتقر اليه الطفولة، فهل أنشأنا في أنحاء الحواضر مؤسسات صحية قد حاجة البلاد؟ وهل يحمل هذا الركود في بلد قيل في احصائياته إن كل فرد تكون فيه ثلاثة أمراض على الأقل؟ وأين المؤسسات في الريف وكنا يعرف أنها لا تبلغ عشر معشار ما يجب ان يكون؟

ولطالما قلت ان من العبث ان نلقي العبء دائماً على الحكومة، فان لها من الشاغل العام ما يقف جهدها دون الغاية المنشودة، وانما يجب ان تنهض الأمة بنفسها وتتولى أمرها إن كانت تريد لها بناة محمود الأثر، وتبغي أن تستخلف خلائف جديرين بالانتساب الى مصر وتاريخ مصر. وهنا يقوم واجب الأغنياء، فان لزاماً ان يكون في عالم حق معلوم لهذه المؤسسات المرجوة، بل يقوم واجب الطبيب والكفء والمجرب، فما أجدر أن يكون لكل مؤسسة حق من وقت الطبيب وجهد الكفء ومعرفة المجرب ومال القادر. فإذا عنينا بصحة الطفولة بنينا أمة غير مريضة منهوكة، والمعوّل في الأمم على سلامة الصحة لا على زيادة العدد، وما خير أبناء يُعَدون ثم لا يلبثون أن تحصدهم العلل ويَغْتَرِسهم الهزال؟

فأما الرعاية الاجتماعية للطفولة فهي من عويص المشكلات، لانه يجب أن نتفق على نوع المجتمع الذي نريده ونشده، ونعرف ماذا يتطلب المستقبل لأولئك الاطفال الذين خلقوا لزمان غير زماننا، والعالم يتمخض الآن عن حياة كدح وشقاء وامتحان، فالنشء الجديد أحوج ما يكون إلى أن تربى فيه غرائز الطموح والشجاعة والصبر. ونحن في مصر لما نتفق بعد على خطة السير بالأمة في طريق الحياة، وما زلنا نتراشق بالتهم، فهذا رجعي يعود القهقرى، وهذا مجدد يتجاوز الحدود. فعلينا أن نجمع كلمتنا على نوع الثقافة الذي نرضاه ووجهة الحياة، الحياة الاجتماعية التي نسعى اليها، حتى نمضي في طريقنا صفّاً

ويحسن بي هنا أن أشير الى نظام التعليم الاولي الذي قصد به إعداد الطفل الاعداد الثقافي. فهل وفى بالغرض؟ إننا نسمع في كل يوم صيحة، ونقرأ في كل صدر دراسة، إلا أنه يمكن أن يقال على اية حال إن الأطفال في معاهد التعليم الأولي لا ينعمون بالرعاية التي

ترجى للطفولة ، فلم يهيأ المعدون التربية الاجتماعية لرعاية الأطفال ، ولم تعد الأمكنة الصالحة لاستعادتهم استعادة صحية مثمرة . وإنما مشكلة التغذية وقد ارتفعت في شأنها الأصوات . ثم هدأت الثائرة ، وسكنت عواطف البر ، وطوي المشروع الذي رحب به نصراء الاصلاح . ولو تقصينا أسباب ذلك الإخفاق لوضح لنا أنها جميعاً ترجع إلى سبب واحد ، هو أن تعاون الاجتماعي معدوم في المجتمع المصري ، فكل يعيش لشأنه وجاهه ومتاعه

فتى نفهم أن للعلم وللجاه وللمال زكاة تؤدى ؟ ومتى نفهم انه إذا لم تنجح الدعوة الحرة في الحث على الزكاة صار واجباً أن نقيم أساسها بقوة التشريع ، فنفرضها على الأكفاء والقادرين فرضاً محتوماً ، ونعرّض المقصرين منهم للجزاء ، وانهُ لخير ان نقسو ونشتد في سبيل المصلحة العامة حتى لا ندع البلاد تنوي زهرتها ويعاجلها الفناء

ولتسمحوا لي ان أتهم القادرين على انقاذ الطفولة مع التقصير عن القيام بهذا الواجب ، بأنهم يريدون الخراب لهذا البلد في حاضره ومستقبله ، فهم يرون أعداء الطفولة من الفقر والجهل والمرض تغير من كل ناحية . ويقفون مكتوفة أيديهم لا يبدون حراكاً ، فلنفرض عليهم الواجب فرضاً ، ولنجند القادرين على الاصلاح جميعاً

الحق ان مشكلة الطفولة فوق ما تصوره من الخطر ، وحقٌ ان إنقاذ الطفولة يجب ان يكون برنامج الجامعات وموضع تشجيع الحكومات ، فلقد خسرنا بإهمال الطفولة خسارة جسيمة يفسرها لكم ما جاء في تقرير لعالم أجنبي ، إذ يقول : « لقد لمست الذكاء في الطفولة المصرية عن كثب ، فهو في أرفع مستوى ، ثم رأيته بعد السابعة يخمد شيئاً فشيئاً » وذلك راجع للبيئة ، فالأم عامل من عوامل إطفاء الذكاء ، والأب عامل أيضاً ، والمدرسة قد تكون عاملاً كذلك . على أن ما تعالجهُ المدرسة يفسده البيت ، فهما يتعارضان

فلنؤمن إيماناً قوياً بمشكلة الطفولة ، ولنهض عازمين راشدين لانقاذها ، ولنعلم أننا إن أعددنا الطفل أعددنا الشعب الكريم العزيز . وقد قال شوقي :

وربَّ فقير قوم علوه سما وحما المروّمة العرابا
وكان لقومه نفعاً وفخراً ولو تركوه كان أذىً وعابا
فعلم ما استطعت لعلَّ جيلاً سيأتي يحدث العجب العجابا

وها هي ذي رابطة الاصلاح الاجتماعي تقوم في هذا الميدان الواسع بموادها القليلة منشئة معهد دراسات الطفولة ، وهي تعلم أنها تحدث بهذا المعهد أثراً محدوداً في دائرة محدودة . ولكنها على أية حال تعطي المثل ، وتحفز الهمم ، آملة ان تقوم بجانبها الجامعات التي تمد يدها الى النهوض بجانب من هذا العبء ، فالقليل الى القليل كثير ، والضعف الى الضعف قوة . والله نصير العاملين